فنون بلاد الرافدين في عهد الأشوريين

تمهيد تاريخي

ينسب الأشوريون إلى مدينة أشور، و هو أيضا إسم إله المدينة الواقعة شمال العراق، و بدأت قوة الأشوريون تنمو تدريجيا بداية من الألف الثاني ق.م، غير انهم اصطدموا بالقوى الاعظمى انذاك، و هم البابليون في الجنوب، الحثيون في اسيا الصغرى و الميتانيون في بلاد الشام، هذا إلى غاية القرن التاسع ق.م، بداية من عهد أشورنازيربال، حيث أصبح للأشوريين قوة كبرى في الشرق الأوسط القديم، و شرعوا في حركة توسع على حساب جيرانهم، ليشكلوا إمبراطورية عظيمة بلغت أوج قوتها في عهد سرجون الثاني (722 – 705 ق.م) و خلفاءه سنحريب (704 – 681 ق.م) ، أسرحدون (680 – 669 ق.م)، و أشوربانيبال (668 – 627 ق.م) الذين تمكنوا من احتلال بابل، و بلاد علام، و الشام، و فلسطين و حتى مصر الفرعونية، غير ان هذه الإمبراطورية سرعان ما أنهارت تحت ضربات تحالف مكون من البابليين و الميديين الذين تمكنوا من احتلال العاصمة الأشورية نينوى و تدميرها سنة 612 ق.م، و بذلك اختفى الأشوريون من التاريخ.

الفنون الأشورية

ورث الأشوريون التقاليد الفنية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين منذ عهد السومريين، كما تآثروا ايضا بفنون أسيا الصغرى القريبة منهم جغرافيا، و يتميز الفن الأشوري بالعظمة و القوة، فهو فنا رسميا في خدمة السلطة، لتمجيد قوة الأباطرة الأشوريين، و إدخال الرهبة في نفوس و أذهان زوار مدنهم و قصورهم ابهارهم.

ترك لنا الأشوريون تراثا فنيا عظيما، يتمثل أساسا في المدن و القصور التي شيدوها بمختلف ارجاء الإمبراطورية. كانت مدينة أشور العاصمة في بداية الأمر، ثم انتقل مقر السلطة إلى مدينة نيمرود (كلخو حاليا)، ثم أسس سرجون الثاني عاصمة جديدة و هي مدينة دورشاروكين (خورسباد حاليا)، التي هجرها خليفته سنحريب و يؤسس عاصمة جديدة و هي مدينة نينوى، و كلها في شمال العراق قرب مدينة أشور. هذا إلى جانب قصور بمدن أخرى منها قصر بتل برسيب بسوريا.

قصر دور شاروكين

يُعد قصر دورشاروكين (خورسبَاد) أهم القصور الأشورية، التي كشفت الحفريات به على اهم اقسامه، كما امدنا بالكثير من التحف الفنية التي تزخر بها كبريات متاحف العالم.

اسست مدينة دور شاروكين من طرف سرجون الثاني (721 – 705 ق.م) بعدما هاجر قصر نيمرود (كالخو)، و تتخذ المدينة مخططا مربعا تقريبا (1760 م X 1650 م)، أي حوالي 288 هكتار، يحط بها صورا طوله 7 كم، سمكه 24 م، و ارتفاعه يتراوح ما بين 15.50 م و 24,50 م، بُني من الطين المحروق على قاعدة من الحجارة، و تتخلله 157 برجا يبلغ ارتفاعها 30 م، و تتخله 7 ابواب، تحميها ثيران مجنحة ضخمة يبلغ وزها 40 طنا.

PDF Creator Trial

يستند القصر على الصور الشمالي للمدينة، و يحيط به صورين، صور أول يشكل مساحة مستطيلة الشكل تقريبا بها مساكن الوزراء و كبار الدولة و معبد الأله نابو، ثم صور ثان يحيط بالقصر بأتم معنى الكلمة و يفصله عن بقية المباني (شكل رقم 1).

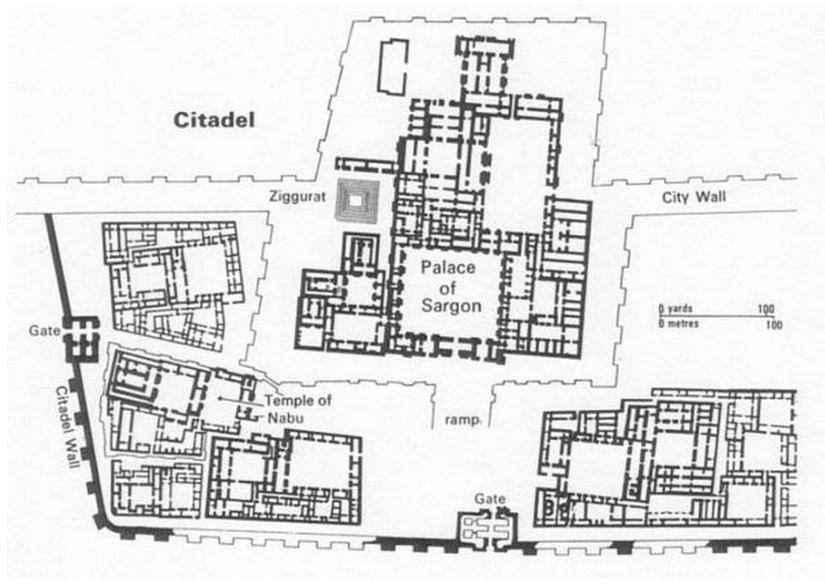

شكل رقم 1 : مخطط قصر دورشاروكين

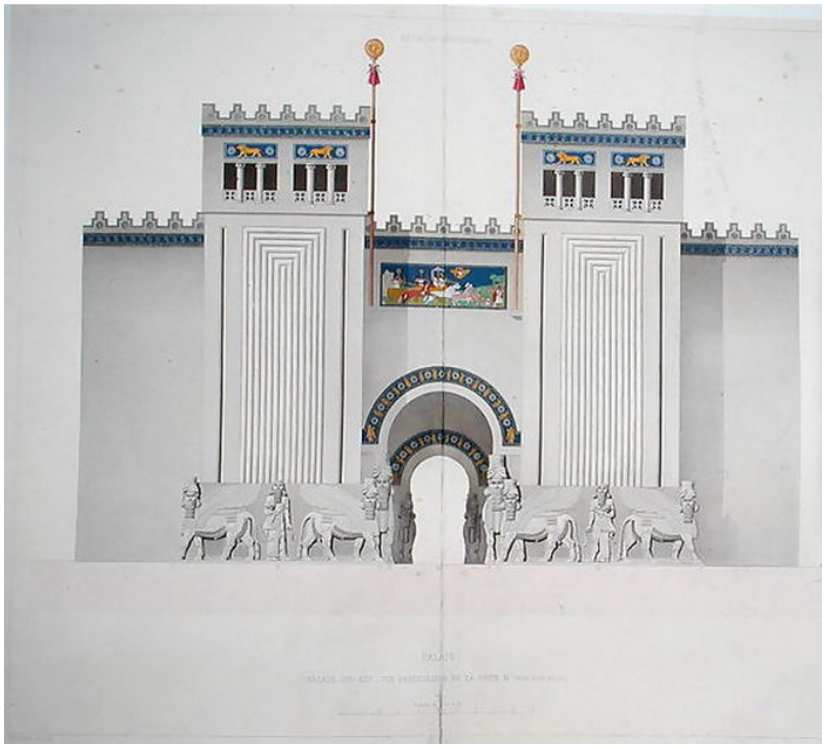

بُني القصر على قاعدة ضخمة يتراوح ارتفاعها ما بين 16 م 18 م، مما يجعل القصر يشرف على المدينة و يمكن رؤيته من بعيد، و هناك العديد من الممرات المنحدرة تسمح للخيول و العربات للصعود إلى سطح هذه القاعدة، و سلالم ضخمة تؤدي إلى البوابة الرئيسية للقصر، و هي بوابة ضخمة و مقوسة يغطيها قبو نصف دائري و يحميها على الطرفين برجين ضخمين بارزين، و على جانبي المدخل و قاعدة البرجين ثيران مجنحة(شكل رقم 2).

شكل رقم 2 : البوابة الرئيسية بقصر دورشاروكين

PDF Creator Trial

يتكون القصر من حوالي 200 غرفة و ساحة، تتوزع حول ثلاث ساحات رئيسية للقصر : ساحة أولى ضخمة من الجهة الجنوبية تؤدي إليها البوابة الرئيسية للقصر، و تفتح عليها المرافق الإدارية للقصر، و المخازن، و المطابخ...الخ، و منها ننتقل إلى ساحة ثانية أصغر من الأولى، و هي الساحة الشرفية التي تفتح عليها قاعة العرش، و قاعات الإحتفالات الرسمية، و في مؤخرة القصر، نجد ساحة ثالثة و هي أصغر من الساحتين السابقتين، تفتح عليها الغرف و القاعات الخاصة بالملك أي الحريم، أين تعيش زوجات الملك، و الأطفال صغار السن فقط. و في الجهة الجنوبية الغربية للقصر مجمع ديني، يتكون من معبدين متقابلين للأله شمش و الأله سين، و زاقورة ضخمة. عموما جدران القصر تتميز بالسمك حتى يكون البناء حصينا و متينا، و يساهم في الحفاظ على برودة غرف القصر خلال فصل الصيف، و على الدفء في فصل الشتاء.

الزخرفة

الزخرفة الخارجية للقصر تتمثل أساسا في تشكيل نتوءات غائرة و اخرى بارزة بشكل عمودي على الجدران (Retraits et Redants) ، مما يضفي عليها جمالا خاصا بفضل التناوب بين النور و ضلال الشمس التي تنعكس على الجدران، و هي من التقاليد المحلية التي ترجع إلى عهد السومريون كما نشاهد ذلك في زاقورة أور، كما تساهم اقواس البوابات و المداخل في جمالية هذه القصور.

شكل رقم 4 : رسم قديم لأحدى بوابات قصر دور شاروكين

غير أن أجمل ما في هذا القصر و بقية القصور و المدن الأشورية هو بواباتها الضخمة، و هي ذات أقواس نصف دائرية مزينة بأزهار (شكل رقم 4) و تغطيها أقبية نصف دائرية، و على جانبي المدخل ثيران مجنحة، و التي تُعد العلامة المميزة للفن الأشوري، و هي تمثل حيوانات خرافية تسمى شيدو أو لاماسو (**Shedu ou lamassu**)، جسمها جسم ثور، لها أجنحة نسر، و ذات رؤوس أدمية، تكون دائما على زوج على جانبي بوابات المدينة و القصر، لحمايتها من الأرواح الشريرة.

PDF Creator Trial

نحتت هذه الثيران في كتل حجرية ضخمة بعضها يزن أربعة أطنان، و تتميز بدقة عالية في النحت و بواقعية كبيرة، تظهر في عضلات الثيران، و في ملامح وجهوها الأدمية، و في نحت أدق تفاصيل الأجنحة و حتى اللحية (صورة رقم 1 و 2 و شكل رقم 5)

صورة رقم 1 : ثوران مجنحان من قصر دورشاروكين

صورة رقم 2 : تفاصيل أحد الثيران المجنحة

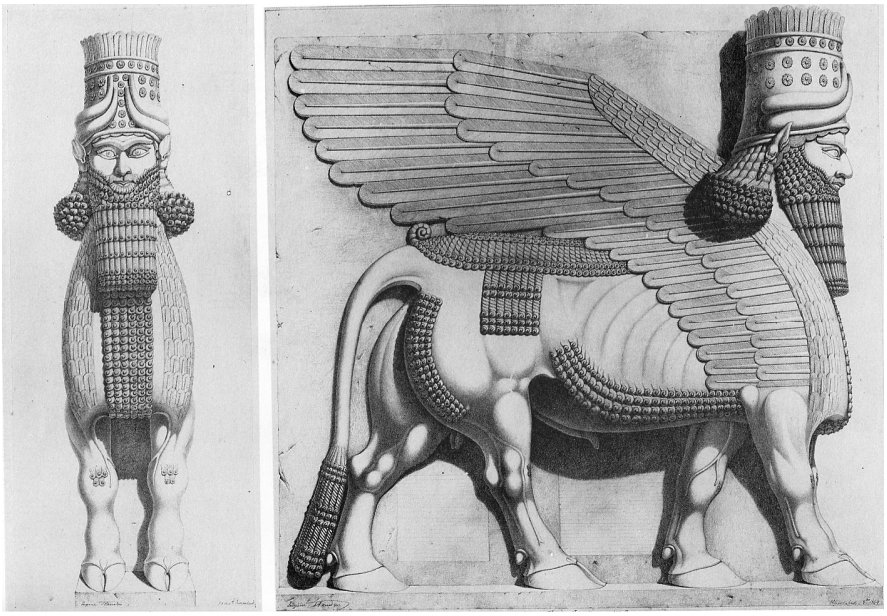

شكل رقم 6 : رسم لأحد الثيران المنجحة من قصر دورشاروكين

PDF Creator Trial

الزخرفة الداخلية للقصر

كانت جميع غرف و قاعات القصور الأشورية مزينة بشكل كامل بالزخارف المتنوعة من الأرضية إلى غاية السقف، و وفق تقنيات مختلف، فالجزء السفلي من الجدران كانت مكسوة بلوحات حجرية منحوتة (Orthostates)، و ما تبق من الجدران تكون مزينة إما بالرسم بالالوان (Fresques)، أو بواسطة الأجر ذو المينا (Briques émaillés).

اللوحات الحجرية (Orthostates): كما سبقت الإشارة إلى ذلك فإن القصور الأشورية كانت مبنية كليا بالأجر المشوي الذي يعد المادة الأساسية في بلاد الرافدين منذ العصر العتيق لأفتقاد البلاد للحجارة، غير أن الأشوريين ابتكروا تقنية جديدة للزخرفة في قصورهم، و ذلك باستعمال لوحات حجرية رقيقة تسمى (Orthostates) لكسوة الأجزاء السفلية من جدران القصور المبنية من الأجر، و على هذه اللوحات الحجرية نحتت بتقنية النحت البارز مواضيع زخرفية متنوعة تمتد بطول جدران قاعات و غرف القصر. و تعد هذه اللوحات الحجرية المنقوشة إلى جانب الثيران المجنحة أبرز ما وصلنا من الفن الأشوري، و تمدنا هذه اللوحات بمعلومات ثمينة لا تقدر بثمن عن الأشوريين خاصة، و منطقة الشرق الأوسط القديم عامة، و تنوعت المواضيع المنحوتة على اللوحات الحجرية من مواضيع حرب، مواضيع الصيد، مواضيع الإستجمام، و بدرجة أقل المواضيع الدينة. و نحتت هذه المواضيع على مساحات واسعة تمتد بطول الجدران لرواية تلك الأحداث بطريقة مسرحية واضحة و مفهومة لمشاهدها.

المواضيع الحربية

وصلنا الكثير من اللوحات التي نحتت عليها مشاهد حربية تمثل حصار المدن و القلاع و تدميرها و حرقها، و قتل الأعداء (صورة رقم 3)، و كانت هذه المنحوتات تلعب دورا كبيرا في الدعاية لسياسة الأشوريين، فهي رسالة ترهيب واضحة موجهة للأعداء و الأصدقاء، لحثهم على الطاعة و عدم الثورة و إلا سيكون مصيرهم مثل مصير الشعوب و المدن الممثلة على تلك اللوحات. و تعد هذه اللوحات مرآة لذلك العصر، فمن خلالها تعرفنا على أساليب القتال عند الأشوريين، و الألات الحربية المستعملة في الحصار و القتال، و الأسلحة، و اللباس...الخ.

صورة رقم 3 : مشهد حصار مدينة مع مشاة و غواصين

PDF Creator Trial

مواضيع الصيد

مواضيع الصيد كانت المواضيع المحببة لدى الملوك الأشورية، فهو نشاط ملكي يمارسه الملك وحده، و خاصة صيد الأسود (صورة رقم 4)، ففي الواقع هو نشاط ترفيهي و تمرين عسكري، و قد أولى الملوك الأشوريين اهتماما كبير للصيد، من خلال العناية الفائقة بالخيول (صورة رقم 5) التي كانوا يستعملونها في الصيد و في الحروب، و كذلك العناية بتربية كلاب الصيد (صورة رقم 6). و غالبا ما نشاهد في هذه اللوحات الملك رفقة حشيته في حملة صيد الأسود، و دائما الملك يتمكن من التغلب على هذه الحيوانات رمز القوة و الشجاعة، كرسالة للتعبير عن قوة و شجاعة الملك.

صورة رقم 4 : مشهد صيد الأسود

و من الناحية التقنية تعد مشاهد الصيد أجمل ما أنجزه النحات الأشوري، فهي تتميز بدقة عالية و واقعية كبيرة نادرا ما نشاهده في فنون الشرق القديم، و يظهر ذلك واضحا في ادق تفاصيل جسم الحيوانات و بشكل خاص الخيول و الأسود و بالشد العضلي لتلك الحيوانات حسب أوضاعها و حركاتها، بل تمكن النحات الأشوري في بعض الأحيان من التعبير عن الألام الداخلية للحيوان كما يبدو على مشهد لبؤة جريحة و هي تحتضر (صورة رقم 7)

صورة رقم 6 : مشهد لكلاب الصيد

صورة رقم 5 : مشهد العناية بالخيول

PDF Creator Trial

كما أن نلاحظ أيضا دقة عالية في تمثيل الرجال، و عناية كبيرة في تمثيل تفاصيل اللباس و حتى في تصفيفة الشعر و اللحية.

صورة رقم 7 : مشهد للبؤة جريحة تحتضر

مشاهد من البلاط، و هي غالبا ما تمثل الإمبراطور الأشوري رفقة زوجته في حدائق قصره، و هي تعطينا فكرة عن الحياة في البلاط الأشوري، و خاصة عن ولع الأشوريون بالحدائق، و استمتاعهم بالشرب و الأكل تحت ظلال الأعناب و هم يستمتعون بسماع الموسيقى، (صورة رقم 8) كما تمدنا بالكثير من المعلومات، منها أنواع النباتات، و الأثاث، و الألات الموسيقية و حتى عن الأسترخاء و الأكل و الشرب.

صورة رقم 8 : مشهد الملك أشوربانيبال في حديقته يستمتع بالشرب و الموسيقى

المواضيع الدينية

و هي قليلة مقارنة بالمشاهد الحربية و مشاهد الصيد، و هي في غالب الأحيان ما تمثل الملك الأشوري رفقة مخلوقات خرافية اجسامها بشرية، مجنحة، و رؤوسها تكون إما رؤوس نسور، أو رؤوس أدمية على رأسها تاج الألهة، تحمل في يد كوز الصنوبر (pomme de pin) و في يد أخرى يحمل إناء على جانبي شجرة مركزية و هي شجرة الحياة مما يؤدي إلى الأعتقاد ان ذلك مرتبط بطقوس خاصة بالخصوبة (صورة رقم 9)، تحت رعاية الأله أشور الذي يمثل رجل ملتحي على ركبتيه بداخل قرص الشمس المجنح.

PDF Creator Trial

صورة رقم 9 : مشهد يمثل الملك أشوربانيبال والمخلوقات المجنحة حول شجرة الحياة

صورة رقم 10 : شاهد ديني

كما وصلتنا العديد من الشواهد الدينية، تمثل الملوك الأشوريين و ضعية جانبية و فوق رؤوس هم مجموعة من الرموز التي ترمز إلى العديد من الهة بلاد الرافدين، منها أنو، و شمش، و سين و عشتار (صورة رقم 10).

الأجر ذو المينا (briques émaillés)

إذا كانت الأقسام السفلية من جدران القصور مكسوة باللوحات الحجرية المنحوتة، فإن الأجزاء العلوية كانت مزينة بلوحات من الأجر ذو البريق المعدني، و هي تقنية جديدة سأتعرض لها لاحقا

برسومات بالألوان، و هي تتشكل من ثلاث مستويات أفقية، مستوى سفلي، و مستوى علوي ضيقان مزينان إما بأشكال هندسية، أو بأزهار او بحيوانات خرافية تتكر بطول المستويين، أما المستوى الأوسط فهو عريض، و يكون مزين بنفس المواضيع التي نشاهدها منحوتة على اللوحات الحجرية و بنفس الأسلوب

استعمل الأشوريون أيضا الرسم بالألوان لتزيين قصورهم، و أقدم النماذج التي وصلتنا ترجع إلى عهد تيكولتي–نينورتا من مدينة أشور (صورة رقم)، و هي عبارة على ورود و أشكال هندسية ز حيوانية، غير انها قليلة، البعض الأخر من قصر دورشاروكين فمثل الملك سرجون امام إله (صورة)

لكن اهم الرسوم الملونة وجدت بقصر تل برسيب (تل أحمر) بالشمالي الشرقي من سوريا و الذي اكتشفت به خلال الحفريات التي تمت به بين سنوات 1929 – 1931 م حيث كانت أغلب قاعات القصر مزينة بلوحات الفرسكو فقط

PDF Creator Trial

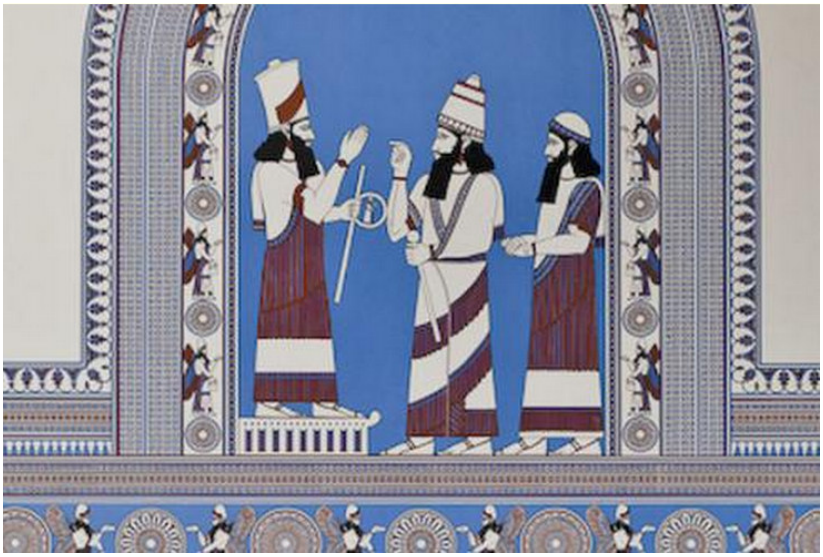

و يعد قصر تل برسيب بسوريا القصر الوحيد الذي استعملت فيه تقنية الرسم بالألوان لوحدها لتزيين جدران القصر (صورة رقم 11) و يعتقد أنها انجزت في الفترة الممتدة ما بين 744 ق.م و 627 ق.م و هي تمثل خاصة مشاهد الصيد مماثلة لتلك المنحوتة على اللوحات الحجرية في القصور الأشورية بنيمرود، دورشاروكين و نينوى.

صورة رقم 11 : رسوم قصر تل برسيب (سوريا)

PDF Creator Trial